

پول بورچیه

كان بورچیه بين الكتاب المعاصرين أحد أولئك النفر القليلين الذين بحكم حياتهم الأدبية المديدة قد عاصروا الجيل الحاضر والجيل الذي قبله . ذلك أن بورچیه الذي ولد عام ١٨٥٢ قد أخرج للناس أول كتاب له وهو في الحادية والعشرين من عمره ، فتاريخ الأدب قد ذكر اسمه بين كتاب القرن التاسع عشر الذي قضى فيه ما يقرب عن خمسين عاماً من حياته قبل أن يذكره المؤرخون الحديثون في عداد الكتاب المعاصرين . وكما كان بورچیه بحكم شيخوخته الأدبية ليس أديباً معاصراً فقط ، كذلك كان بحكم تفكيره مفكراً لا يعيش في العصر الذي نعيش فيه . فقد ظل بورچیه حتى موته عام ١٩٣٦ يحيا بأفكاره في شبه عزلة ، يستمد لها الوحي والإلهام من كتب القرون الغابرة . ظل حتى يومه يؤمن بالملكية المطلقة وسلطة رجال الدين ويدعو إلى العودة إليهما في شعب جرت مبادئ الديمقراطية في دمه وروحه . سن هاتين الناحيتين يختلف پول بورچیه عن ذلك العدد الزاخر من الكتاب المعاصرين الذين ترعرعوا في ظلال العصر الجديد ، فهم من احتفظ في آدابه بفكرة (الفن للفن) وبقي بعيداً عن محيط الحياة الصاخب ،

ومنهم - وهم الغالبية - من أثبت شدة إحساسه وقوة شخصيته أن
يهدش إلى النهاية على هامش الحياة فنزل إلى معتركها ، ولما زلزلت
أذانه صرخات الصرعى وأوجاع المتألمين في مجتمع يعج بالنقائص
تردد الصدى في فنه الخالد ، وإذا القلم بين يديه كالمعول يهدم به
الطاح وينبى الصالح .

على أن بورجيه كان يتفق والكتاب المعاصرين من حيث
محاولة إقامة فنه القصصى على أساس علمي . فقصصه جميعاً تدور
حول تحليل العواطف الإنسانية المتضاربة وغرائزها الأولى
وخصوصاً الغريزة الجنسية ، وهو في فنه دقيق الملاحظة عظيم القدرة
على التعمق في خفايا النفس ، ولعل هذا هو السبب في أن القارئ
الذى لم يرزق طول الأناة والصبر على قراءة القصص التحليلية
لا يلبث أن يشعر بالملل والسأم عند قراءته ، إذ أن كل إنتاج
بورجيه القصصى ، رغم غزارته ، ما هو إلا وصف وتحليل حالات
متموعة من النفس البشرية .

ولقد بدت ظاهرة التحليل النفسى الطاغية على فن بورجيه
في أول أعماله الأدبية حين بدأ حياته الكتابية بنشر مجموعة
شعرية سماها (على شاطئ البحر) (Au bord de la mer) (١٨٧٣)
ثم أتبعها بأخرى عنوانها (الحياة القلقة) (La vie inquiète)
(١٨٧٤) . ففي كلاهما المجموعتين وما تبعهما حاول بورجيه

أن يظهر ما وراء ذلك الطلاء الاجتماعي الذي يستر طبيعتنا الأولى من نزعات جياشة ورغبات لا تخمد، فأصاب في محاولته نصيبا وافرا من التوفيق . على أن الشعر وما فيه من تكلف وتقييد لم يكن يتفق وأديبا من نوع بورجيه ، يسعى لتمزيق الحجب التي كست بها المدنية الشخصية الإنسانية ، يحاول أن يتغلغل إلى ما وراء الصدور ، يكشف النيات والإحساسات الغامضة الملتوية ، ثم يعتمد إلى تحليلها والوقوف على مبعث وجودها . إن هذه الموهبة لهي أكثر صلة بطبيعة « الناقد » ومهمة « القصصى » . لذا سار پول بورجيه في هذين الاتجاهين وبلغ فيهما شأوا عظيما .

ففيما يتعلق بالناحية النقدية من فنه فقد بدأها بورجيه بكتابة دراسات عن كتيّاب القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي عاش فيه النصف الثانى بأكمله ، وكان من بين هؤلاء الكتيّاب بودلير وستندال وتين . ولا تزال هذه الدراسات حجة ومرجعا فى تحليل من كتب عنهم . أما فيما يتعلق بفن بورجيه القصصى فقد بدأه بعد زيارته لانبجتراتعام ١٨٨٤ بقصة (الذى لا يصلح) L'irréparable (١٨٨٤) وهى أولى قصصه القصيرة التى كتب منها العدد الوافر . أما قصصه الطويلة فقد بدأها بقصة (لغز قاس) Cruelle énigme (١٨٨٥) وتلتها (جريمة حب) Un crime d'amour (١٨٨٦) . ثم (أندريه كورنيليس) André Cornélis (١٨٨٧) ثم (أوهام) Mensonges (١٨٨٧)

لم يكن بورجيه إلى ذلك الوقت قد بلغ بعد الشهرة التي أعدها
له القدر حتى ظهرت قصته (التابع) Le disciple (١٨٨٩) ثم
تلتها (المرحلة) L'étape (١٩٠٢) ثم (طلاق) Un divorce (١٩٠٤) ،
وعندئذ ذاع اسمه ذيو عاً كبيراً وكثير تحدث الأندية الأدبية والنقاد
عنه . ولقد كان الباعث على ذلك أمران : الأول عمق التحليل الذي
أثبت نبوغ بورجيه كمكاتب نفسى إلى جانب براعته كقصاص ،
والثانى أن فى هذه القصص الثلاث أوضح بورجيه آراؤه الاجتماعية
والسياسية بصراحة لا لبس فيها ولا مواربة ، بعد أن كانت تجول
فى صدره — دون أن تجلى تماماً — مدى عشرين عاماً .

• • •

ومما لا شك فيه أن الآراء الاجتماعية والسياسية التي يؤمن بها
مفكر من المفكرين إنما هي وحي نفسيته الخاصة وظروف البيئة
ونوع الثقافة ودرجة الذكاء . ويظهر أن كل هذه العوامل قد
تضافرت لكي تخرج لنا من پول بورجيه مفكر أرجعى النزعة .
ولقد بدت هذه الرجعية منذ أوائل أعماله ، إذ كان فنه قاصراً على
رسم الطبقة الأرستقراطية والاعتزاز بها والدفاع عنها . وقد يكون
السبب الذى منعه من أن يدعو لأفكاره جهاراً فى أدبه هو فهمه
لطبيعة شعبه الفرنسى الذى يقسّد مبادئ الحرية والمساواة .
على أن هناك سبباً آخر كان يحول بينه وبين تسخير فنه لبحث تفكيره

السياسى والاجتماعى. ذلك أنه كان هناك ما يشبه التقليد بين الكتاب
الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر — باستثناء أقلية تقدمية معدودة
مثل فيكتور هيجو — وهو أن يكونوا فى فهم بعيد بن عن التأثير
بالمشكلات الاجتماعية والسياسية، فكان لكل منهم رأيه الخاص
من دون أن يكون لذلك رأى أثر ظاهر فى أدبه الذى بقى فنا
خالصا. بيد أنه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن
العشرين حدثت فى فرنسا حوادث سياسية مخزية كفضيحة بناء مأساة
دريفوس زعزعت عند عدد من الكتاب الفرنسيين الثقة فى النظام
الجمهورى وجعلت مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى التى هى أساس
هذا النظام موضعاً للمناقشة والتفنيد، إلا أن الغالبية العظمى من
الكتاب بقيت مؤمنة بقيمة النظام الجمهورى وفائدته، مرددة أن
ما حدث ما هو إلا طوارئ عارضة وأن إصلاحها يسير، ولا يمكن
مطلقاً أن تكون سبباً فى قلب نظام قام على توضحيات عشرات
الآلاف من الفرنسيين. ولقد كان الكتاب الساخضون على النظام
الجمهورى فى أثر الفضائح السياسية فریقین متناقضين، كل منهما يطلب
نظاماً اجتماعياً يختلف كل الاختلاف عن النظام الذى يطلبه الفريق
الآخر ويرى فيه الإصلاح والقضاء على الفوضى القائمة. فالفريق
الأول كان يرى فى النظام الاشتراكى خير ضمان من عبث العابثين
وكان زعماء هذا الفريق أناتول فرانس وچان چوريس ورومان

رولان . أما الفريق الثاني فكان يطلب رجعية تعود بفرنسا إلى ما قبل الثورة الكبرى أى إلى حكم الملوك المطلقين ورجال الدين ، وزعماء هذا الفريق پول بورجيه وموريس باريس وشارل موارس . ومنذ ذلك الوقت جعل كل من الفريقين فنه ميدانا للدعوة لعقيدته فخرج أدهم من أن يكون فنا للفن إلى معالجة مشكلات المجتمع ومحاولة إصلاحه بالطريقة التي يراها كل فريق منهما .

ولقد كان هذا الذى حدث نقطة تحول هامة فى طابع الآداب الفرنسية فيما بعد . ولقد ساعدت نكبة الحرب العالمية الأولى وما سببته من أزمات اقتصادية لانهاية لها وبؤس جاثم على صدور البشر على ازدياد أنصار الفريق الأول — فريق فرانس وجوريس . ورولان — ازدياداً عظيماً نلسه الآن فى أعمال أعظم الكتاب الفرنسيين من شيب وشبان ، بينما وقف الفريق الثانى وعلى رأسه بورجيه عند نقطة ابتدائه ، لم ينله أقل تطور ، بل ازداد ضعفاً بابتعاد الحوادث التى سببت هذه الرجعية وعلى ضوء الحقائق الملهوسة .

فى كل من القصص الثلاث (التابع) و (المرحلة) و (طلاق) نرى بورجيه يتمسك بأمرين يدعو لها ويعدد ما يراه فيهما من فضائل ، الأمر الأول نظام الحكم الملكى القديم والأمر الثانى .

التقاليد الدينية قبل أن يدخلها الإصلاح والتطور . فبينما نراه في قصة (التابع) يوغل في امتداح الطبقات الأرستقراطية ويعتبر التصويت العام خطراً قومياً ، نراه أيضاً في قصة (المرحلة) يحاول أن يثبت أن هناك حدوداً لا يجب أن تتعداها الطبقات الفقيرة ، وأن (المرحلة) التي تفصل بين هذه الطبقات والطبقات الأرستقراطية بعيدة الشقة يكاد لا يمكن عبورها !

ولقد جعل بوجيه بطل قصة (المرحلة) — ويدعى فيكتور فيران — أحد أساتذة الجامعة المشهورين في فهم الفلسفة الكاثوليكية ، وهو حين يصفه لنا يقول (أنه ليس تقايدياً في الدين فحسب بل في السياسة أيضاً ، وهو لا يتكلم عن الثورة إلا ليذكر العقائد الجامدة الفاسدة في ثورة ١٧٨٩) فاذا سمعنا الأستاذ فيران نفسه يتكلم رأيناه يعلن أن (جميع القوانين التي نعيش في ظلها منذ مائة عام — أي منذ الثورة الكبرى — هي قوانين الغرور والكبرياء) ثم حين يقف فيران في صف أعداء دريفوس — وهم كما نعرف قليلون بالقياس إلى أنصاره — لا يتردد پول بوجيه في أن ينسب ذلك إلى (عبقريته الوضاعة الرزينة) ويدعم ذلك بتأييد آرائه فيقول (إن فرنسا تغرق نفسها في نظام برلماني عظيم التطرف ، نظام يقوده أفراد انتخبوا بواسطة التصويت العام وبعبارة أخرى

تقوده أغلبية من المشعوذين أرسلتهم أغلبية من الجهلاء) .

وفي قصة (طلاق) نرى بورجية يقف فكريتها على الدعوة
للكنيسة الكاثوليكية . وفيها يعتبر أن الطلاق مهما كان سببه جالب
للسكوارث والنكبات .

من ذلك نرى أن فن بورجيه تقليدى محض ، ينكر كل تطور
فى السياسة والدين أنتجته الأفكار الديموقراطية الحديثة . والحق
أن طغيان هذه النزعة الرجعية الجامدة على فنه منذ ظهور قصة
(التابع) قد أساء إليه إساءة ليست يسيرة ، إذ عزل اسمه من
صفوف الطليعة بين رجال الفن القصصى المحدثين الواعين الذين
ساروا فى ركب التطور وكانوا عوناً محسوساً فى السير بالمجتمع
الإنسانى نحو النور والتقدم .

لقد كان بورجيه أديبا ومفكراً ، ولكننا بموته لم نفقد فيه
ذلك المفكر الممتاز الذى كانت تعقد عليه وعلى نظرائه الآمال
لأنه يمثل روح العصر كما كانت الحال مع معاصره أناطول فرانس
مثلاً . ذلك أن الأفكار التى كانت تطبع أدب پول بورجيه لا تمت
إلى الفلسفة الاجتماعية الجديدة بصلة ، وهى لذلك لم تكن هزيلة فى
فرنسا فحسب بل فى العالم المتمدن أجمع . والإنسانية التى تسير كل
يوم إلى الأمام خطوة جديدة ليست فى حاجة إلى الأفسكار التى

تعود بها إلى الوراثة قرونا . . . إنما الذي فقدناه حقا بموت بورجيه،
هو بورجيه الأديب . ولولا أن تفكيره كان يطفئ عليه كيناقد
وكقصصى لا اعتبر بدقة وصفه وعمق تحليله من أعظم أدباء فرنسا
في شام نخاد لحا تير

